الأب ليف جيله: راهب من الكنيسة الشرقيّة، الجزء الثاني
المتروبوليت سابا (اسبر)

الأب ليف والكنيسة الأنطاكية

في صيف العام ١٩٤٦ الأب ليف جيله تعرّف إلى كنيسة أنطاكية وإلى حركة الشبيبة الأرثوذكسية فيها. ومذّاك بدأ الأب ليف يتردّد إلى لبنان ويزور سوريا بشكل متواتر، وذلك بعد أن دعاه مطران بيروت إلى الاستقرار في لبنان.

استأثر به الجامعيّون في حركة الشبيبة الأرثوذكسيّة منذ ١٩٤٧، وكانوا متعطّشين إلى ممارسة سرّ الاعتراف والإرشاد الروحي والدراسات الكتابيّة. وبدأ بزيارة الحركيّين واعظاً ومعرِّفاً ومرشداً، في أبرشيّات الكرسي الأنطاكي. شرح في إحدى رسائله أسباب إعجابه "بالأولاد العرب النزهاء والأذكياء والمخلصين والأسخياء." لقد أعرب عن إعجابه بشباب الحركة المتجذّرين في أعماق التقليد الأنطاكي والمنفتحين على مشاكل العالم المعاصر. لقد تميّز هؤلاء، بحسب رأيه، بحياة روحيّة قوية مرتبطة بوعي واضح واستقامة ثقافيّة وخلقيّة. حركة الشبيبة الأرثوذكسيّة تمثّل بالنسبة إليه "فرصة مؤاتية للكنيسة العالمية وأملاً كبيراً للأرثوذكسيّة."

إن شهادات شباب الحركة حول أهميّة الدور الذي لعبه الأب ليف جيله في نمو التجدّد الروحي الأنطاكي لا تُحصى. يقول المطران جورج خضر: "لقد حرّرنا من عقديّة وطقوسيّة جافّة ومن أخلاقيّة ضيّقة." ويقول في مكان آخر عن تفاسير الأب ليف الكتابيّة: "كان أصفى تفسير عرفته في حياتي". لقد استعاد الأب ليف مع حركة الشبيبة الأرثوذكسيّة الإحساس بالعنصرة الذي اختبره مع الشباب الروس المهاجرين في بدء خدمته في باريس، وبقي يزور لبنان سنويّاً حتّى العام ١٩٧٥. وقد كتب إلى شباب الحركة (الجيل الثاني) في مناسبة الذكرى السادسة عشرة لمجيئه الأوّل فقال: "أنا لكم، أنا ملككم، لا أعرف كيف سيكون القصد الإلهي في المستقبل. أنتم أقرب إليّ وأعزّ من أيّة مجموعة شبابيّة. معكم أشعر، كما منذ ست عشرة سنة، بتجدّد الإنجيل وبروح العنصرة." لقد قام الأب جيله بعمل رعائي واسع النطاق في الكرسي الأنطاكي؛ فكان ينتقل من اجتماع إلى مؤتمر إلى عظة فاعتراف حتّى ساعة متأخرة من الليل. وساهم في تأسيس رهبنتي دير مار يعقوب ودير مار جرجس (دير الحرف)،

وكان له تأثير حاسم في النمو الروحي والالتزام عند عدد كبير من مرشدي حركة الشبيبة الأرثوذكسيّة والكهنة والعلمانيّين الذين في صفوفها، ومنهم من وصل فيما بعد إلى مراتب أولى في الكنيسة الأنطاكيّة. اعتاد، خلال إقامته في لبنان، أن يزور سوريا ومصر والقدس، وقد كتب بعض أعماله التي نُشرت بالفرنسيّة في بيروت قبل أوربة، ونقلت في ما بعد إلى العربيّة، عبر منشورات الحركة مثل "أبانا"، "كن كاهني"، "من أجل فهم أفضل للقدّاس الإلهي،" "سنة الرب الطقسيّة."

بقي حتى وفاته كاهناً لبيت القدّيس باسيليوس، المركز اللندني لأخويّة القديسين ألبان وسيرجيوس. وزّع نهاره بدقة بين عمله في المتحف البريطاني على تنقيح الكتب القديمة وتدوين فهارس بالمؤلفات التي تعالج تاريخ الكنائس والأديان، ولقاءات خاصة توجيهية روحيّة. والتردّد على هايد بارك كورنر. وقد تميَّز بنشاطه إذ اشترك في أعمال الأخويّة كافّة وفي رعيّة لندن الروسيّة.

انجذب كثيرون إلى الأرثوذكسيّة بفضل الأب ليف، لم يكن يدفعهم إلى الكنيسة أو يردع كلّ من وجد عنده عطشاً روحيًّاً حقيقيًّاً، بل كان يحوّله إلى الميتروبوليت ليستقبله في الكنيسة الأرثوذكسيّة.

عن هذه المرحلة كتب المطران كاليستوس (وير): "اتَّسمت خدمته الكنسيّة بالبساطة والحريّة، كان يتجنَّب الأمجاد والتَّشريفات واللّجان والمسؤوليّات الإداريّة، كما كان يمقت الإكليريكانيّة بكلّ أشكالها والأبّهة الكنائسيّة وفي بعض الأحيان يُبدي سخرية لاذعة تجاه هذه المظاهر. اتّسم عمله الرّعائي بالتَّكتّم، بصورة شبه خفيّة، على شكل محادثات في مجتمعات صغيرة وغير شكليّة وبواسطة اتّصالات شخصيّة مع أولاده الروحيّين. وقد اتَّسمت نصائحهُ غالباً بتأثير عميق ومثمر على حياة الآخرين."

أغدق من نصائحه من دون ادّعاء أو تبجّح وبأسلوب صريح غير موارب، عنيف أحياناً. شدَّدَ دوماً على ضرورة ممارسة "سرّ اللحظة الحاضرة" حتّى تخترقُنا حقيقة قرب الله منّا في أعمالنا اليوميّة العاديّة. من خلال نمط حياته في لندن، حيث لُقِّبَ ب "راهب صومعته: المتحف البريطاني."

قام في العام ١٩٥٦ بزيارات عديدة إلى باريس للتدريس في معهد القدّيس سرجيوس مع صديقه بول إفدوكيموف والجيل الجديد الذي يضمّ جون مايندورف وبوريس بوبرينسكوي. زار البطريرك أثيناغوراس الَّذي أظهر له تقديراً كبيراً وثقة بالغة. في العام ١٩٥٩ اقترح على جان بالزون ناشر المجلة الفرنسيّة "الأرثوذكسيّة" أن يعهد إلى أوليفييه كليمان بمنصب رئيس تحرير للمجلّة، فبدأت مع أوليفييه كليمان حقبةً جديدةً منفتحة على المسيحيّين الآخرين وعلى العصريَّة، كما كان الأب جيله أيضاً مصدر الوحي والإلهام الذي أدّى إلى نشوء الأخويّة الأرثوذكسيّة في أوربة الغربيّة.

في أيَّار ١٩٦٥ عيَّنهُ البطريرك أثيناغوراس مرشداً روحيّاً لسندسموس (رابطة حركات الشّبيبة الأرثوذكسيّة في العالم)، وشارك في محاضرات عديدة منها واحدة في برمانا (لبنان). كرَّس نفسهُ أكثر فأكثر لهدف ضروري وحيد ألا وهو التماس وجه يسوع فهو لم يكفّ عن التّكرار بأنَّ "الإنجيل وحده هو المهمّ". أبعد من الأخلاقيّة والخلاصيّة ليس هناك إلاَّ الإنجيل.

لقد أودع في كتبه الشفّافة التي يخترقها النور خبرته الرُّوحيّة التي تناقلتها كثرة من النَّاس في بلدان عديدة من العالم. بقيت بعض كتبه الأكثر رواجاً ضمن المنشورات الدّينيّة، وهكذا صدر له "صلاة يسوع"، "يسوع، نظرات بسيطة على المخلّص" (١٩٦٠)، و"حضور المسيح" (١٩٦١)، و"اليمامة والحمل" (١٩٦٣)، و"وجه النّور" (١٩٦٦)، و "حبّ بلا حدود" (١٩٧١).

ابتداء من العام ١٩٧٨ لم يعد قادراً على مغادرة إنكلترا لأسباب صحيّة. في ٢٩ أيَّار من العام ١٩٨٠، في ذكرى سبت أليعازر، وبعدما احتفل بالقدّاس الإلهيّ، خرج في نزهةٍ قصيرةٍ وقال مازحاً: "الليلة السابقة شاهدتُ شابّاً لابساً حُلَّةً بيضاء يضع بطاقة على سريري، هل كان هذا حلماً؟ تأكدوا وأنتم تنظفون!". عند عودته جلس على مقعده وأخذ يقرأ، وعند المساء جاء أحدهم يحضر له شيئاً من طعام فوجده ميّتاً على الكرسيّ. كان يبدو وكأنَّهُ نائم. أوصى بجثمانه للأبحاث العلميَّة.

كتب عنه المطران جورج خضر:"أذا أردت أن أختزل الأب ليف بكلمة أو كلمتين أقول إنه كان مذهلاً في تواضعه وفقره ووادّاً لأصدقائه ولو ابتعدعنهم سنوات مديدة. لم يسكره علمه وما كان يعرضه إلا عند الحاجة. ثم كان يجيء بطقم أسود مدني وغنباز

شرقي واحد. لا أذكر أنّه اشترى سواهما خلال السنوات الطولى التي عرفته فيها ولهذا كان يأتينا بحقيبة صغيرة يحملها هو."

وقال المطران أنطوني (بلوم) في عظة الجنّاز: "يوماً ما سنواجه كلُّنا وجه الربّ. الأب ليف ومنذ صغره أعطى قلبه للفقر، وسيقف ساكناً صفر اليدين أمام الرَّب لأنَّهُ أعطى كُلَّ شيء، مدركاً أنَّهُ خاطئ يكمن رجاؤه الوحيد في محبّة الله، لكن نحن سنقول للربّ: "لم أكن إلا حقلاً، الأب ليف كان الزّارع وكلمته البذار."